قصّة يونس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَبِّ أَعِنْ

أرسل الله نبيَّه يونس إلى قوم في قرية من قرى الموصل من بلاد العراق، هم أهل «نينوى» يدعوهم إلى عبادة الله وطاعته.

وقد حملت سورة في القرآن اسم هذا النبي وهي من السور الطوال.

وورد ذكر اسمه في القرآن بعدة أسماء منها:

يونس، ذو النون، صاحب الحوت.

والنون في القرآن هو الحوت. وقيل: ذو النون: صاحب الحوت؛ لأنَّه مكث في بطن الحوت مدَّة من الزمن.

وقيل للرسول محمد ﷺ: اصبر لحكم ربك في تبليغ القرآن ورسالة الإسلام ولا تكن كصاحب الحوت، مثله في الغضب والضجر والعجلة. ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: 48].

ونبيُّ الله يونس هو يونس بن متَّى من الصالحين العابدين. أرسله الله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله الواحد وترك عبادة ما سواه من أصنام ونحو ذلك، ويهديهم إلى مكارم الأخلاق التي دعا إليها كل دين سماويٍّ لمعاملة الناس بالحسنى، وتعلُّم الأمانة، وعدم السرقة، واحترام الآخرين... إلخ.

وأمضى يونس وقتاً طويلاً يهدي قومه في «نينوى» ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد ونبذ عبادة الأصنام. ولكنهم لم يهتدوا ولم يسمعوا له كلاماً ولم يؤمن معه إلَّا قليل.

ولما يئس من إيمانهم أوحى الله إليه: أن يخبر قومه إن لم يؤمنوا ليصيبنّهم عذاب أليم يقضي عليهم.

فقالوا لبعضهم: أن راقبوا يونس، وكان قد اشتهر بينهم بالصلاح والتقوى وعدم الكذب وكان لا يقول إلا الحقَّ.

وقالوا: إن بقي بين قومه فلا خوف على الناس، وإن خرج من بينهم فهو نزول العذاب ولا شك.

فلما كان الليل، خرج يونس من بين قومه. وكان قد يئس من إيمانهم، وتوقّع أن يصيبهم العذاب، بعد أن رفضوا كلامه ولم يؤمنوا بما أمرهم به، من نبذ عبادة الأصنام، والإيمان بالله الواحد، خالقهم وخالق كل شيء، وأن الأصنام لا تجدي لهم نفعاً ولا ضرًّا، وأنه لمّا طال عليه أمرهم وتعنتهم، ذهب فارًّا بنفسه ولم يصبر على أذاهم، وكان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن ربِّه.

وفي الصباح بحث أهل «نينوى» عن يونس فلم يجدوه، عند ذلك علموا أن العذاب سيأتيهم ولا شك، لِما عرفوا من صدقه وتقواه. فخافوا وتابوا توبة صادقة واستغفروا الله، ودعوه أن ينجِّيهم من العذاب الذي ينتظرهم. وخرجوا جميعهم من بيوتهم، وفرَّقوا بين الأمَّهات والأولاد من الناس والبهائم في الساحات والقفار، وعادوا إلى عبادة ربِّهم وتركوا عبادة الأصنام. فتقبَّل الله توبتهم وهو الغفور الودود وكشف عنهم العذاب. ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا

كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98].

أما يونس فخرج من بين قومه غضبان، لأنَّهم لم يسمعوا كلامه ولم يأتمروا بأمره، وظنَّ أنَّ العذاب لحق بهم ولم يعلم توبتهم ولم يعلم أنَّهم استغفروا ربهم، وأنَّ الله قبل توبتهم وكشف عنهم العذاب.

ذهب يونس غاضباً، هائماً على وجهه لا يدري إلى أين يذهب. ولكنَّه عاد وقصد ساحل البحر. وهناك رأى قوماً يريدون أن يبحروا في سفينة لهم وسألهم أن يحملوه معهم، وفي ظنَّه أن يذهب إلى مكان آخر يدعو فيه الناس إلى عبادة الله.

وقبل القوم أن يحملوه معهم وتوسَّموا فيه خيراً. وما إن وصلت السفينة إلى وسط البحر حتى توقَّفت عن السير ولم تعد تسير، لا يميناً ولا شمالاً، وأشرفت على الغرق.

فقال بعض الناس: ما لهذه السفينة؟

فقال البعض الآخر: لا ندري!

فقال يونس: إن فيها عبداً هارباً من ربِّه، وإنَّها لن تسير حتى تُلْقُوه في البحر.

قالوا: أما أنت يا نبيَّ الله فلن نلقيك.

قال: اقترعوا. ومن تجري عليه القرعة ليُلْقَى في ماء البحر.

وقبلوا هذا الاقتراح وأَجْرَوُا القرعة، وكان نتيجتها أن كان اسم نبيَّ الله يونس.

وفوجئوا بهذه النتيجة ولكنَّه علم أنَّه هو المقصود، وعلم أنَّه أذنب، لأنَّه خرج من بين قومه دون أن ينتظر وحي ربَّه بما يأمره، وأنَّه خرج دون إذن مولاه. فما كان منه إلَّا أن قال للقوم أن يُلْقُوه في الماء، ولكنَّهم لـ

يقبلوا اقتراحه. وقالوا: بل نقترع مرَّة ثانية وثالثة، وربَّما يكون المقصود غيرك.

وما إن أَجْرَوُا القرعة للمرَّة الثانية إلَّا وكانت النتيجة كما في المرَّة الأولى. فاقترعوا للمرَّة الثالثة، وكانت النتيجة كما في المرَّتين السابقتين، فعلم أنَّه هو المقصود. فما كان منه إلا أن ألقى بنفسه في الماء واستسلم لقضاء الله وقدره. وما إن ألقى بنفسه في البحر حتى سارت السفينة كعادتها.

أما يونس ما إن وقع في ماء البحر حتى أمر الله حوتاً أن يبتلعه ففعل. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ[1] إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ[2] فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ[3] ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ[4] ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: 139-144].

وحينما ابتلعه الحوت هوى به إلى قاع البحر. ونادى يونس ربه: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ[5] أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: 87-88].

---

(1) أبق: تباعد. وقيل ليونس: آبق؛ لأنه خرج من بين قومه دون إذن من الله.
(2) ساهم: اشترك معهم في القرعة.
(3) من المدحضين: من الخاسرين.
(4) مُليم: مُلام؛ لأنه خرج دون إذن.
(5) الظلمات هي: ظلمة الليل، وظلمة ماء البحر، وظلمة بطن الحوت.

فكان هذا التسبيح[1] سبباً لعفو الله عن يونس بعد أن ندم على ذنبه الذي اقترفه في حقّ أناس أرسله الله إليهم لهدايتهم، ورَحِمَهُ ربُّه بأن أخرجه من بطن الحوت ومن تلك الظلمات.

وبعد هذا التسبيح المتواصل من يونس، أوحى الله للحوت أن يقذفه إلى الشاطئ ففعل الحوت ما أمره به ربُّه.

ومن رَحْمَةِ الله بعبده يونس أن أنبت له على شاطئ البحر شجرة من يقطينٍ لتظلّه، خاصّة أنّه بعد أن خرج من بطن الحوت كان ضعيف الجسم لما لاقاه من أهوال في داخل الحوت وما لاقاه من قروح في جسمه. فخرج من بطنه كالطفل الصغير الذي يخرج من بطن أمّه، ولا بدَّ له من أن يستظلَّ في ظلِّ شيء يحميه من حرارة الشمس حتى يستعيد عافيته.

ولكن لماذا شجرة اليقطين تحديداً؟

والجواب: أنَّ هذه الشجرة هي الوحيدة التي لا يقربها الذباب. ولمّا كان يونس قد خرج من بطن الحوت وجلده طريٌّ، فكان يخشى عليه أن يأتيه الذباب. ومن المعلوم أنَّ الذباب ناقل للجراثيم. ومن رحمة الله بعبده التائب من ذنبه أن أنبت له شجرة لا يقربها الذباب. قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ[2]﴾ [الصافات: 145-146].

وبعد أن تعافى يونس مرّ به غلام يرعى غنمه.

---

(1) ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. قيل: إنَّ هذه الآية أولها تهليل: لا إله إلا أنت. وأوسطها تسبيح: سبحانك. وآخرها استغفار: إنّي كنت من الظالمين.

(2) اليقطين: القرع.

فسأله يونس وقال له: يا غلام، ممن أنت؟

قال: من قوم يونس.

فسأله عن حال قومه. فأخبره أنَّهم بخير وأنَّهم تابوا إلى ربِّهم، وروى له كيف قبل الله توبتهم ورفع عنهم العذاب، وأنَّهم بحثوا طويلاً عن نبيِّهم يونس ولم يجدوه ويَتَمَنَّوْنَ أن يرجع إليهم.

عندئذٍ قال له النبيُّ الكريم: أنا يونس.

فسرَّ الراعي كثيراً وذهب إلى قومه مهرولاً يخبرهم أمر نبيِّهم. فهرعوا إليه يقبِّلونه ويعودون به إلى قريتهم «نينوى».

ودخل القرية ووجد القوم كما أخبره الراعي وأنَّهم قد تابوا إلى ربِّهم ونبذوا عبادة الأصنام، وكانوا حوالي المئة ألف أو يزيدون آمنوا بالله عن آخرهم. ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: 147-148].

وقيل: إنَّه حينما أنبت الله عليه شجرة اليقطين وأدَّت دورها يبست، فبكى عليها، فأوحى الله ﷻ إليه: أتبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم!

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98].

وهكذا لبث يونس في قومه آمناً مطمئناً معهم يعبدون الله مخلصين له الدين حنفاء بعد أن نبذوا عبادة الأصنام.

العبر من قصّة يونس:

يؤخذ من قصّة يونس عدة عبر، منها:

1 - الصبر الذي يجب أن يتحلّى به كل مؤمن، ولو صبر يونس وبقي مع قومه لمَا تعرَّض لابتلاء الله له من إيداعه في بطن الحوت، ولكن قدّر الله وما شاء فعل.

2 - تأدية الواجب الذي يجب على الإنسان أن يؤدِّيه مهما عانى من الصعاب وعليه أن يصبر ولا يهرب من واجبه. وعليه أن يعلم أنَّه أينما حلَّ وارتحل فإنَّ الله سبحانه وتعالى مُقَدِّر عليه قدره.

3 - الإذن من الله للأنبياء في الدعوة لدين الله. فمثلاً نسوق نموذجاً من حياة الرسول محمد ﷺ، مفاده أنَّ المسلمين الأوائل عندما ظُلِمُوا واشتدَّ عليهم الظلم طلبوا من الرسول محمد ﷺ أن يقاتلوا المشركين، ولكنه لم يأذَن لهم بذلك إلا عندما أذن الرحمٰن. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39].

4 - الاستغفار والتسبيح اللذان يجب على المؤمن أن يتحلّى بهما، وأن يذكر الله دوماً في الرخاء حتى يذكره الله في الشدة، كما نظر الباري إلى يونس حينما سبحَّ ربَّه واستغفره في بطن الحوت، فكانت النتيجة أن رحمه ربُّه وأخرجه من الغمِّ والهول اللذين لاقاهما.

5 - نعمة الله التي أسبغها على يونس أن هداه للتسبيح، وذلك متجلٍ بقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: 49].

6 - هناك إعجاز في هذه القصّة عندما أمر الله الحوت أن يلقي

بيونس على شاطئ البحر وكان الحوت مريضاً. ومن المعلوم أنَّ الحيتان التي تشعر بضعفها وقرب أجلها تتَّجِه إلى الشاطئ. وهذا الأمر لم نعلمه إلَّا منذ فترة ليست ببعيدة، وهو ما نراه على شاشات التلفزة.